تقديم لفظة (رجل) من قوله: "وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى" / القصص/ وتأخيرها في "يس"

هل استوقفكم قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام حين قتل خطأ أحد المصريين وانتشر الخبر (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) /القصص : 20/.

وقوله في قصة أصحاب القرية الذين أرسل إليهم اثنين من الرسل فكذبوهم فعززهم الله بثالث (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين) /يس : 20/ .

فتساءلتم : ما الحكمة من ذكر لفظ (رجل) في آية القصص أولا ، وتقديمها على قوله (من أقصى المدينة) ؟! بينما جاء الأمر على العكس في آية يس ، حيث قدم قوله (من أقصى المدينة) على لفظة (رجل) ؟!! مع الملاحظة أن كلا من الآيتين رقمها 20 في موضعها من السورة ، وهي لفتة جميلة !

إن مجيء (رجل) قبل (من أقصى المدينة) في سورة القصص (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) هو الوضع الطبيعي من حيث الصناعة النحوية، فعادة ما يكون الفاعل عقب الفعل من دون فاصل في لغة العرب، و لا يأتي خلاف ذلك إلا لحكمة واعتبارات نحوية وبلاغية. هذا أولا .

وثانيا – وهو متفرع عن النقطة الأولى – : ليس هناك من داع لتقديم (من أقصى المدينة) على اعتبار أن الخبر الذي جاء به الرجل سيكون من أطراف المدينة وأقصاها الذي هو مكان سكنى فرعون وزبانيته عادة، فتسريب الخبر وانتشاره إنما كان من هناك هذا هو المنطقي. يقول ابن عاشور – رحمه الله – : " والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه، فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المدن توقيا من الثورات والغارات؛ لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف" / تفسير التحرير والتنوير/.

ثالثا : إن التركيز في هذه الآية كان على رجولة هذا الناصح وشجاعته، فكونه يفصح عن مراد ومخطط فرعون لقتل موسى عليه السلام، ويكشف عما يدور في الخفاء ومن وراء الكواليس فهذا بحد ذاته جرأة تستوجب التقدير والتنويه، لأنه قد يترتب على ذلك العقوبة أو حتى القتل !

أما عن آية سورة يس فإن تقديم (من أقصى) على (رجل) جاء لحكم وأسرار منها :

أولا: إفادة أن الرسالة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام آتت أكلها حيث بلغت أقاصي المدينة وأطرافها ، ولم يذهب جهدهم سدى ، فقد قاموا برسالتهم على أكمل وجه مع التكذيب الذي صدر من معظم أهل القرية. والله سبحانه يبارك في جهد المخلصين دنيا أو آخرة .

ثانيا: الإشارة إلى أن أطراف المدينة فيها من الخير والصلاح ونقاء الفطرة والميل نحو التدين ما لا يوجد في أوسطها وقلبها، وأن فيهم من الاستقلال بالرأي والاعتداد بالتفرد ما لا يوجد في قلب المدينة ووسطها.

يقول ابن عاشور – رحمه الله -: وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة لأن قلب المدينة هو مسكن الملأ وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليهم الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم، بخلاف أطراف سكان المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين؛ لأن سكان أطراف المدينة غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة. /التحرير والتنوير – بتصرف/.

ثالثا : الإشارة لفضل الرجل المؤمن وعظم منزلته حيث إنه قطع مسافة طويلة قادما من أقصى المدينة وأطرافها معلنا اعتقاده بالدين الجديد، ومبينا موقفه من الرسل، ولعل هذا السبب في التعبير عن القرية بالمدينة – حيث جاء في البداية (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ..) ثم قال بعد ذلك (من أقصى المدينة) – ما يشير إلى بعد الشقة والمسافة التي قطعها.

قال الخفاجي: قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بيانا لفضله ؛ إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم وإن بعده لم يمنعه عن ذلك ؛ ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة، وأن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد، وقيل : قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة ؛ فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين " / تفسير روح المعاني للآلوسي/ .

رابعا: ربما يكون السر من وراء ذلك التأكيد على أن موقف الرجل لم يكن مرتبا ولا مخططا له مع الرسل عليهم السلام، فلا معرفة لهم به ولم يتواطؤوا معه على ما أراد – والله أعلم – ، فعادة ما يكون تركيز الرسل دعوتهم على قلب المدن والقرى ، و على أمها وعواصمها ، إذ فيها أكابر القوم المأثرين والمتنفذين .